

(١)

بين "الفكر" و "الثقافة" (*)



(*) نشرت معدلة بصحيفة الأهرام (٢) - ثم نشرت كاملة بمجلة العربى التى تصدر بالكويت - العدد ٣٦٩ فى أغسطس ١٩٨٩م.

بين "الفكر" و "الثقافة"

عادة ما نخلط بين مفهوم "الفكر" ومفهوم "الثقافة" ونستخدمهما كمرادفين؛ فلا نميز بين "الفكر" و "الثقافة"، بين "المفكر" و "المتقف"، فكل متقف ندعوه مفكرا وكذلك فكل مفكر متقف، والحق أنه إن جازت الثانية فلا تجوز الأولى.

ولقد شغلنى الأمر فنظرت فى العديد من الموسوعات والمعاجم، ولشد ما كانت دهشتى حيث وجدت أنها لا تقدم تمييزا واضحا بين هذين الاصطلاحين؛ فقد عرفت "دائرة المعارف الحديثة" الثقافة بأنها "لفظ شاع استخدامه حديثا ويقصد به مجموع صفات المعرفة والبصيرة والذوق السليم"، وعرفت الرجل المتقف بأنه ذلك الذى "يجمع بين تلك الصفات أو يقترب منها". وقد اعتمدت فى ذلك التعريف على الاشتقاق اللغوى للكلمة حيث إن "الثقافة فى اللغة بمعنى التأدب والذكاء، فنقول ثقفت اللغوى أى فهمته بسرعة".

وإذا نظرنا فى ذلك التعريف فسندد أنه ليس تعريفا؛ فهو لا يكشف عن ماهية معينة أو مدلول ثابت لما نطلق عليه "ثقافة"، بل هو نظر إلى الثقافة من حيث إنها صفة أو صفات تحمل على موضوع معين، وغلب عليها فى التعريف السابق الصبغة الأخلاقية.

أما "الفكر" فقد اكتفت الموسوعة بإيراد بعض مشتقات اللفظ ومترادفاته كالتأمل والتفكير والتفكر ثم قالت "إن التفكير من أبحاث علم النفس وهو عملية عقلية نزوعية تهدف إلى كشف حقيقة كل مشكلة من المشاكل التي تعترض الإنسان، لهذا كان التفكير من الصفات التي ينفرد بها الإنسان، إذ أن التفكير يحتاج إلى استجماع لتجارب الإنسان الماضية وإدراك العلاقات بينها في ضوء حقيقة ماثلة أمام الفرد، فكل عملية تفكير هي في الحقيقة استخلاص حقيقة جديدة من ثنايا حقيقة قديمة أو جملة حقائق ومثاله محمد أطول من محمود، وحسين أطول من محمد إذن حسين ولا شك أطول من محمود. فهذا الاستنتاج الأخير هو حقيقة اكتشفها العقل بالتفكير وذلك بمقارنة الحقيقتين السابقتين، وإذا شاهد إنسان البرق وسمع الرعد وقال-إن السماء سوف تمطر. فإن هذا الاستنتاج وصل إليه من مقارنة هذه المشاهدة الحسية بالحقيقة العامة وهي أن البرق والرعد مقدمة لسقوط المطر .. فالتفكير في جميع صورته ما هو إلا محاولة العقل لحل مشكلة من المشاكل التي تواجهه".

وهذا أيضا ليس تعريفا للفكر، فقد تطرق المـُعرفون إلى تحليل لبعض العمليات الفكرية فكأنهم تركوا الحديث عن ماهية ما نسميه "فكر" واستدلوا عليه بالنظر في أمثلة عليه كالاستنتاج أو الاستنباط ، فهذه عمليات فكرية وليست هي "الفكر"، فقد فعلوا ما فعله "أوطيفرون" حينما سأله سقراط عن ماهية التقوى، فقال أنها في

التقرب إلى الآلهة بممارسة الطقوس وتقديم القرابين لها. فكان رد سقراط أن ذلك مثالا سلوكيا على ما نسميه التقوى لكنه يريد أن يعرف من أوظيفرون ما الذى يجعل التقوى تقوى؟! إن هذا هو أساس التعريف.

وإذا تركنا هذه الموسوعات العامة وانتقلنا إلى المعاجم المتخصصة فسنجد نفس الشيء وإن كنا نقرب هنا من التحديد المطلوب؛ فالمعجم الفلسفى الذى أصدره مجمع اللغة العربية قد عرف "الثقافة" بأنها "كل ما فيه استنارة للذهن وتهذيب للذوق وتسمية لمملكة النقد والحكم لدى الفرد أو فى المجتمع وتشتمل على المعارف والمعتقدات والفن والأخلاق وجميع القدرات التى يسهم بها الفرد فى مجتمعه، ولها طرق ونماذج عملية وفكرية وروحية ولكل جيل ثقافته التى استمدها من الماضى وأضاف إليها ما أضاف فى الحاضر وهى عنوان المجتمعات البشرية ويفرق بينها وبين الحضارة على أساس أن الأولى ذات طابع فردى وتنصب بخاصة على الجوانب الروحية فى حين أن الحضارة ذات طابع اجتماعى ومادى".

وهنا نلاحظ أنه ربما كان القول بأن الثقافة هى كل ما فيه استنارة للذهن يشير بالفعل إلى ماهية صورية للثقافة - تشير إليها لفظة "ما" التى لم يحدد المصنف محتوى لها - من حيث إن الثقافة

تَعْنَى كَمَا قَالَ دِلْتَاى اتساع المعرفة والوعى. ولكن استطراد المُعرف أفسد التعريف حيث تطرق إلى استطرادات زائدة عن الحاجة من جهة، كما ميز فى هذه الاستطرادات تمييزاً غير موفق بين الثقافة والحضارة حينما قال بأن الأولى ذات طابع فردى والثانية ذات طابع اجتماعى، فهو نفسه قد قال قَبْل ذلك بأن الثقافة لدى الفرد أو فى المجتمع، فهناك ثقافة الفرد وثقافة الأفراد التى تتشكل منها ثقافة المجتمع ككل؛ فأى ثقافة لا تتفصل فيها ثقافة الفرد عن ثقافة مجتمعه إن كان هناك التوافق المطلوب بين الفرد ومجتمعه.

أما "الفكر" فقد عُرِف فى هذا المعجم بأنه "بوجه عام، جملة النشاط الذهنى من تفكير وإرادة ووجدان وعاطفة. وهذا هو المعنى الذى قصده ديكارت بقوله "أنا أفكر إذن أنا موجود". وأنه "بوجه خاص ما يتم به التفكير من أفعال ذهنية، أسمى صور العمل الذهنى بما فيه من تحليل وتركيب وتنسيق".

وواضح أن هذا التعريف يشتمل على دور منطقي؛ فقد عرف الشيء بنفسه فالفكر هو "التفكير" أو "ما يتم به التفكير من أفعال ذهنية"، كما أنه اعتبر أن الوجدان والإرادة والعاطفة من الفكر. وكم من فروق بينها وبين الفكر. كما أن المُعرف قد استدل على معنى "الفكر" بعبارات شعورية أطلقها أحد المفكرين.

وعلى أى حال، فنحن لم نذكر هذه التعريفات لمجرد نقدها، بل ذكرناها لتوضح أننا كثيرا ما نستخدم الكثير من الألفاظ بمعنى واحد رغم اختلاف مدلولاتها فعلا. وكثيرا ما تختلط أماننا المفاهيم لعدم دقتنا فى استخدام الألفاظ بحيث يترتب على ذلك أن نستخلص نتائج خاطئة نتيجة لذلك اللبس فى معانى الألفاظ المستخدمة.

وربما يكون من المناسب بعد ذلك أن نطرح ما نراه مميذا بين "الثقافة" و"الفكر"؛ فإن الثقافة هى جميع المعتقدات والأفكار التى يتوصل إليها الفرد نتيجة اطلاعاته المختلفة حول طبائع الأمور سواء كانت طبيعية أو سياسية أو أخلاقية أو دينية. إذ أن الثقافة — فى اعتقادى — تابعة للفكر وليس العكس كما يتصور البعض؛ فالثقافة التى تتشكل لدى الأفراد والجماعات فى أى عصر من العصور يصنعها مفكرو هذا العصر أو ذاك، ويتلقاها هؤلاء الأفراد فيتشكل بناء عليه وعيهم وتتسع مداركهم وتنمو أفكارهم وتتجدد، ومن ثم يلقبون بالمتفكرين.

وإذا أردنا فى ضوء ذلك أن نحدد معنى "الفكر"، فهو — كما فى تعريف المعجم الفلسفى — أسمى صور العمل الذهنى، حيث يرتبط الفكر- بالإبداع، فالفكر- هو المبدع الذى يستطيع بتأملاته الخروج عن دائرة المؤلف. ويرى من أبعاد أى موقف ما لا يراه

بقية الناس، ومن ثم فهو الذى يتحمل تبعه إنهاض معاصريه وإيقاظ وعيهم باستمرار والاتجاه بهم - عن طريق ما يقدمه لهم من أفكار جديدة - إلى آفاق أرحب وأفضل. وبالطبع فإن كل مفكر متقف، ولكن العكس غير صحيح؛ فالمتقف يتلقى نتاج فكر عصره ويفهمه، وإذا نجح المتقف فى أن يزيد من وعى معاصريه من خلال نقل هذا الفكر إليهم يكون قد أدى دوره كاملاً، وليس معنى ذلك أن نلقبه بالمفكر.

وإذا ما أدركنا ذلك الفرق بين "المفكر" و "المتقف" يمكن أن نتصور علاقة الفكر والثقافة بالحضارة؛ إذ أن كثيراً من الناس يتصورون خطأ أن الثقافة هى التى تخلق الحضارة وأن المتقفين هم روادها ومبدعوها، ويقسرون تحضر المجتمع بما فيه من متقفين!!.

إن الحضارة بمظاهرها المتعددة من فلسفات وفنون وآداب وعلوم يبدعها الفلاسفة والمفكرون والعلماء. وفى كلمة واحدة يبدعها الأفاضل فى كل ميدان من الميادين. ولا شك فى أن ظهور الفكر الجديد والمنهج الجديد هو نقطة البدء لأى حضارة ناشئة أيا كانت. وانظر فى كافة حضارات العالم قديمها وحديثها ستجد أنها قامت أول ما قامت على فكر جديد ومنهج جديد قدمه مفكروها وفلاسفتها وكان أن ساد هذا الفكر وذلك المنهج فأصبح هادياً للعلماء والأدباء والفنانين ثم صار حياة يحيها المتقفون أولاً فالرجل العادى ثانياً.

ولكى نتمثل ما سبق يجب أن يقر فى أذهاننا الفرق بين "الحضارة" و"المدنية". والفرق بينهما يكمن فى أن الحضارة هى فى ازدهار تلك المظاهر التى عددناها من قبل دون التساؤل عن منفعتها وماتحققه لنا من اشباع مادية. أما المدنية فهى ليست تلك المظاهر الحضارية فى ذاتها، بل تبدو حينما نتساءل عن تلك المنفعة المادية التى نجنيها منها؛ فكان لكافة مظاهر الحضارة جانبها الحضارى، وجانبها المدنى التقنى النفعى. وكثيرا ما نبه الفلاسفة وعلى رأسهم شبنجلر أن الحضارة إذا ما وصلت المدى النهائى فى إبداعاتها وتحولت إلى مدنية كان فى هذا بداية انحلالها فكان "المدنية" تمثل مرحلة انحلال وانهايار "الحضارة"، وما ذلك إلا لأن التركيز فى تلك المرحلة يكون على الجانب المادى النفعى ويتوارى دور المفكر المبدع؛ فتقديم هذا الجانب المادى النفعى ليس مسئولية المفكرين والمبدعين، بل هو مسئولية رجال التخطيط والتنفيذ، ففرق كبير إذن بين أن يكون لدينا "فكر" و"حضارة"، وبين أن يكون لدينا "ثقافة" و"مدنية"؛ فالأولى علامتها الإبداع، والثانية علامتها الاتباع.

وقد يكون الأمر هينا ويمكن تداركه إذا ما كنا نتبع فى ثقافتنا فكرنا، وفى مدنيتنا حضارتنا. ولكن الواقع يقول أننا نتبع فى ثقافتنا فكر غيرنا، وفى مدنيتنا حضارة غيرنا. فما أسباب تلك الحالة التى نعيشها، وهل من مخرج؟؟

(٢)

فكر "السادة" وثقافة "التابعين" (*)



(*) نشرت أيضا معجلة بجريدة الأهرام (٢) — ثم نشرت كاملة بمجلة العربي التي تصدر بالكويت — العدد ٣٥٩ — أكتوبر ١٩٨٨ م.

فكر "السادة" وثقافة "التابعين" ..

لقد قر في أذهاننا منذ مطلع العصر الحديث أننا لكي نلحق
بركب الحضارة لابد أن نساير الغرب سواء مسايرة تامة أو نحاول
التوفيق بين ما ننقله عنه من مناهج وفلسفات وبين عناصر تراثنا
الفكري الإسلامي الأصيل. ولست أشك في مدى إخلاص دعاة ذلك،
فهم حاملو مشاعلنا ومن أناروا أمامنا طريق التقدم في وقت كانت
حلقة الإظلام والتعتيم علينا محكمة محكمه، وما زلنا إلى اليوم نؤمن
بأهمية أن نتبعهم وأن نبدد ما تبقى أمام أعيننا من غشاوة وقتامة
حتى نرى أنفسنا بصورة أفضل، ومن ثم نرى الغرب في صورته
الحقيقية.

وكل ما سأحاوله هنا هو أن أكشف أمام نفسي وأمامكم أعماقا
أبعد لعلاقتنا بالغرب وعلاقة الغرب بنا.

فمنذ أن ظهرت على وجه الأرض أمة اليونان واستطاعت
بذكاء شديد أن تبلور فكرها الخاص من خلال ما جمعتها من فكر
حضارات الأمم السابقة لها والتي كانت آنذاك في طور من الانهيار؛
تعيش مدنية هي بواقى. حضارات أفرغت محتواها. منذ ذلك التاريخ

قدم اليونانيون أنفسهم للعالم على أنهم هم المبدعون للفلسفة والعلم والأدب والفنون؛ فمنهم كان هوميروس وهزيود من الشعراء، ومنهم كان طاليس وفيثاغورس وبارمنيدس وبروتاجوراس وديمقريطس وسقراط وأفلاطون من الفلاسفة، ومنهم كان ايسخولوس وسوفوكليس. ويوربيدس من كتاب المسرح .. إلخ. ومن ثم فقد تصوروا، بل وعاشوا مقتنعين بأنهم هم سادة العالم وأحراره، وأن من عداهم من شعوب وأمم وقبائل ليسوا - إلا برابرة وعبيد، فهم - أى اليونانيون - وحدهم من يصلحون للتأمل والفكر والقيادة والسياسية والعسكرية، ومن عداهم من أمم الشرق لا يصلحون إلا للرق والعبودية. وقد تناسوا آنذاك أن منهم من كان الأجير، والمرترقة عند ملوك مصر القديمة، ولم يكن ذلك بالتاريخ البعيد؛ فقد كان آخر عهدهم بذلك فى عصر الدولة الحديثة وعصر أبسماتيك الأول مؤسس الأسرة الصاوية فى عام ٦٦٤ قبل الميلاد.

ولقد كان لفيلاسوفهم وعالمهم أرسطو فضل ترسيخ تلك الصورة على أنها إعجاز يونانى غير مسبوق فى كافة ميادين الحضارة، وقدم منطقهم على أنه كما بدا له أحيانا وتلاميذه وشراحه دائما هو المنطق العام لضبط الفكر الإنسانى، وفلسفته على أنها الفلسفة التى يجب أن يعتنقها كل البشر، وعلمه على أنه العلم الذى يجب أن يتفهمه ويبرهن عليه ويستكمله ويسير على نهجه كل

العلماء. وقد زاد أرسطو تأكيد تلك المعجزة اليونانية وذلك التفوق بمبادئ فلسفته السياسية؛ حينما اعتبر المواطن اليونانى هو مثال المواطن بما لديه من قدرة فكرية مبدعة ومالديه من خبرة فى المشاركة السياسية. وبلغ من عنصريته أن أجاز الحرب لليونانيين فى حالة واحدة فقط هى حالة نقص العبيد والأرقاء فى المدينة. فليحاربوا من أجل "اصطياد الأرقاء والعبيد" مختلف الشعوب.

وإن كانت تلك المعجزة الفكرية قد اكتملت لدى أرسطو نظرياً، فإن تلميذه الإسكندر الأكبر قد فرضها واقعاً ملموساً بانتصاراته العسكرية التى جعلت امبراطوريته تمتد من شواطئ البحر الأبيض المتوسط حتى تخوم الصين والهند. ورغم ما يقال من حلو الكلام عن عظمة الإسكندر بأن خلقه كان الدعوة إلى الإخاء والمساواة بين بنى البشر، وأن دينه كان للتوحيد، وأن هدفه صهر الحضارتين الشرقية والغربية وتكوين دولة عالمية واحدة، رغم كل ذلك فقد كان الإسكندر يحمل نفس عنصرية اليونانى الفكرية التى فاقت أحياناً عنصرية أستاذه. بل إنه كان يفضل ذلك التفوق الفكرى على كل ما حققه من مجد سياسى وعسكرى؛ فهذا هو الإسكندر يكتب رسالة لأرسطو - نشرها بلوتارخ فى الجزء الثانى من كتابه "السير" - يقول له فيها: "إنك لم تحسن صنعا بنشر ككتابك فى نظريات الخطابة - إذ ما الذى بقى لنا مما نمتاز به على الآخرين إذا أتاحت تلك الأشياء التى

تخصصنا في معرفتها للجميع؟ إنى أوكد لك أنى من ناحيتى أوثر أن أمتاز على الآخرين بمعرفة ما هو ممتاز على كل اتساع فى قوتى وامتداد لسلطانى".

ولعلنا قد أدرکنا من هذه الكلمات المباشرة للإسکندر. أنه لم يكن يستهدف - كما هو شائع - نشر الفكر اليونانى فى الشرق بقدر ما استهدف التعرف على "هؤلاء البرابرة" وضمهم إلى دولته، وليقتضى على ما بقى فى حوزتهم من تميز فكرى. ولاضير فى أن يتشكل أحيانا تشكلا زائفا، فيرتدى ملابسهم أحيانا، ويتقرب إلى آلهتهم أحيانا أخرى، ولا ضير فى أن يتزوج منهم ويوحى إلى قواده بأن يتزوجوا منهم أيضا!! لقد كان كل ذلك وسيلة لغاية أبعد هى تأكيد سيادة الجنس اليونانى فكراً وعقيدة.

ولشد ما أعجب بعرب الجزيرة العربية العظماء الذين أنار الدين الجديد عقولهم وحرر أخلاقهم، وجدد همهم، فحملوا لواء حضارة فنية جديدة أساسها الإيمان الحق بآله واحد، وبالأخوة والمساواة العالمية (فلا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى). ولم يكن ذلك مجرد إيمان نظرى بشرية إلهية .. بل عاشوها حياة حقيقية وسلوكا لا يعرف التشكل الكاذب ولا النفاق ولا الخبث. وسرعان ما سادوا العالم قولا وعملا بقوة الإيمان قبل قوة السلاح فاشتقوا لأنفسهم طريقا حضاريا جديدا وأصبح العصر عصرهم؛

فالفكر فكرهم، والعلم التجريبي علمهم، والمجتمع السياسي الحق أساس دولتهم الكبرى، وأخلاق القرآن حياتهم. وسرعان ما أقبلوا على فكر هؤلاء الإغريق فنقلوه ثم شرحوه وفهموه فهضموه. وبعد الشراح ظهر المبدعون؛ ففي الفلسفة ظهر الغزالي بعد الفارابي وابن سينا، وظهر ابن خلدون بعد ابن رشد. وفي العلم ظهر جابر بن حيان والحسن بن الهيثم وابن البيطار وابن النفيس وغيرهم. وكان رجال الفقه والقانون الذين نقلت أوروبا تشريعاتهم وقوانينهم، وكان رجال السياسة الأفاضل كعمر بن الخطاب ومعاوية بن أبي سفيان، وكان العسكريون العباقره كخالد بن الوليد وطارق بن زياد .. إلخ. وكذلك كان الشأن في مختلف الآداب والفنون والعلوم.

وإن كان الحال في العصر الوسيط قد تغير من جانبنا وصار المسلمون بحق هم سادة العصر ومعلميه دون تعالٍ ودون عنصرية فإن الغربيين ظلوا على عنصريتهم وعنجهيتهم القديمة؛ فقد نقلوا عنهم وأنكروا، وأخذوا منهم ما أخذوا ولم يظهروا لذلك أثراً؛ فإن أردت أن تبحث عن اسم أحد التجريبيين العرب في مؤلفات روجر بيكون أو فرنسيس بيكون فلن تجد، وإن حاولت أن تبحث عن اسم أبي العلاء المعري في كوميديا دانتي الإلهية فلن تجد، وأن تصورت أنك يمكن أن تجد اعترافاً بالتأثر من جانب قانوني أو سياسي غربي، أو لدى أي عالم أو فيلسوف فأنت واهم!! فهم لا يعترفون لأحد بأى

فضل. ولا يذكرون غيرهم إلا حينما يكون وسيطا كابن سينا أو ابن رشد ينقلون من خلاله فكر أسلافهم.

لقد تصوروا أنهم صانعو عصر النهضة الغربية بابتداعاتهم هم فقط وببعض ما أحيوه من أفكار أسلا فهم من اليونانيين، وأنهم لم يستفيدوا شيئا من المسلمين أو من الشرق — اللهم إلا بعض شروح لأرسطو أو لجالينوس وإضافات طفيفة لابن حيان وابن الهيثم. إنهم ظلوا في نظر أنفسهم هم سادة الفكر وقادة العالم إلى التتوير والانتقال من عصور الظلام (العصر الوسيط كما ينظرون إليه) إلى عصر العلم التجريبي والفلسفة العقلانية الحديثة. وليست الحضارة الغربية بكافة مظاهرها إلا سليله للحضارة الغربية القديمة (الحضارة اليونانية).

و شيئا فشيئا، وكما فعل أجدادهم، طمسوا الحقيقة الناصعة — حقيقة العصور الإسلامية الرائدة المبدعة — وجعلوها باهتة قائمة. ومرة أخرى صوروا لأنفسهم وللعالَم أنهم صانعو مجد الإنسان الحديث وحدهم وإنهم من بين بني البشر من يملكون قدر البشرية كلها، فلا بد أن ينصاع العالم لهم وأن تسلّمهم البشرية قيادها. إنهم لا يزالون السادة وماعداهم من التابعين؛ إنهم يملكون وحدهم الفكر والإبداع، وغيرهم يستورد ما يصدرونه له من نفايات المدنية وتافه الثقافة وأحط الأخلاق حتى يتشكل الجميع بنموذج غربي زائف.

وقد تحقق لهم ما أرادوا إلى حد كبير؛ فلم يعد الشرقى شرقيا بأصالته، ولا العربى عربيا بعروبته، ولا المسلم إسلاميا فى إسلامه، لأن كلا فقد الارتباط بجزوره الأولى وأصبح كريشة عالقة بالهواء تدفع بها رياح التغريب إلى أى اتجاه تشاء. فالجميع رضى لنفسه الاتباع بدلا من الإبداع؛ حينما رضى لنفسه الثقافة بدلا من الفكر، والمدنية بدلا من الحضارة.

وقد برع الغربيون بمؤسساتهم ومستشرفيهم فى غزونا ثقافيا بعد أن غزونا عسكريا واقتصاديا بعدما تيقنوا أن ذلك الغزو الثقافى أشد أنواع الغزو فتكا وأطولها أمدا. نجحوا فى غزونا بكل وسائل دعائيتهم واعتمدوا فى ذلك لا على فكرتهم عنا فحسب — وهى فكرة أساسها أنهم المبدعون ونحن التابعون — بل على فكرتنا نحن عن أنفسنا وهى لم تعد مختلفة عن الأولى؛ — لأنه قد قر فى أذهاننا كما قلت فى البداية أنه لا مفر من أن نتبع الغرب إن أردنا أن نتقدم.

وعلى ذلك فقد أصبحنا نقبل منهم كل شىء دون روية أو تدبر؛ فإن ظهر هناك أديب من الدرجة العاشرة وأعطوه جائزة نوبل لأسباب سياسية أو ما شابه ذلك نقلنا كل أعماله وقلدناه. وإن ظهر هناك مذهب فلسفى جديد سارعنا إلى ترجمته وأصبح موضحة نتمثلها ونقيم أنفسنا بمقدار ما نقلنا عنه أو ما أستطعنا تمثله منه، أو بمقدار استطاعتنا التشدق بمصطلحاته الإفرنجية رغم أنه ربما يكون أبعد ما

يكون عن بيئتنا وواقعنا، بل ربما يكون نقله في غير صالحنا، وفي أفكاره هدم لنا وقضاء على تقدمنا ونهضتنا، وفقدان لهويتنا.

ولا يظن أحد أنني من دعاة الانعزال. ورفض كل ما هو غربي. فهذا أبعد ما يكون عن قصدي الآن. بل كل ما في الأمر أنني أردت أن ألدل على أننا بالفعل لا نقيم أنفسنا إلا بما نتمثله من الغرب وبمعايير الغرب، وفي هذا يكمن الداء، داء التبعية ..

وهو داء لو تعلمون خطير، ونتأجه أكثر خطورة؛ فنحن لم نعد ننظر لأنفسنا على أننا أهل للإبداع!! بل أصبحنا ننظر لأنفسنا على أننا عاجزون عن مجاراة الغربيين في كل شيء، فما بالك بالخروج عليهم!!

إن المفكر المبدع إن ظهر في مجتمعنا حاربناه ولم نعطه فرصة النمو والإبداع في حرية واستقلال عن النموذج الغربي، بل اتهمناه بالتخلف والنكوص. وإن ظهر لدينا عالم فذ اتهمناه بأنه ربما سرق من الغرب، وضيعنا عليه الخناق حتى يهجرتنا إلى حيث يجد كل الرعاية في الغرب فيصبح إنتاجه ملكا لهم ويصدر باسمهم. وأحيانا ما يخطئ الكثيرون ويتصورون أنه القدر؛ فقد كتب علينا في ظل هذا التقدم العلمي الرهيب للغرب بأن نظل تابعين لا مبدعين.

ولكن الحق أننا قد حملنا القدر ما لا ذنب له فيه وما أشقنا على أنفسنا من حملة، إن مشوار الألف ميل كما يقال دائما يبدأ

بخطوة، وأول الخطى هي أن ننفذ عن أنفسنا غبار التبعية بعد أن نخرجه من أدمغتنا وأوصالنا، وهنا يجب أن يكون دور المفكر الرائد المستقل؛ الذى إن درس الفكر الغربى لا يتشكل به ولا يلبس عباءته؛ دور العالم المرتبط ببيئته والعاشق لها، الذى إن اطلع على النظريات الغربية أو درس فى جامعات الغرب عاد إلى تلك البيئة ليستخرج منها أقصى امكانياتها، ويعيد تشكيلها من جديد إن كان ذلك ممكناً؛ دور الأديب الذى إن اطلع على الأدب الغربى لا ينبهر بأشكاله أو بمضامينه، بل يكون انبهاره بما تزخر به بيئته الشعبية الأصيلة من موضوعات ومضامين قل أن يوجد مثيلاً فى العالم .. فهل نحن فاعلون أم سنظل ندور وندور فى تلك الدائرة المفرغة التى أرغمنا على دخولها أو أدخلنا أنفسنا فيها ولا هى منا ولا نحن منها!!!

(٣)

موقفنا من الفكر الغربي ..
تحليل معرفي (*)



موقفنا من الفكر الغربى تحليل معرفى

إن قضية "الهوية الثقافية المصرية" قضية بالغة الأهمية، لما لها من تأثير مباشر على هويتنا ككل؛ فلو استطعنا تحديد هويتنا الثقافية الحقيقية وتمثلناها جيداً لاستطعنا أن نعرف بالتالى هل لنا هوية فى نظامنا التعليمى، أو فى نظامنا السياسى، أو فى نظامنا الاقتصادى ... الخ!!.

فالهوية الثقافية تمثل بلا شك مركز الدائرة بالنسبة للهوية المصرية إذا أردنا لها أن تكون فى حاضرنا ومستقبلنا كما كانت لنا فى ماضينا. وسأقتطع لنفسى قضية هى فى اعتقادى جوهر تلك القضية العامة، ألا وهى موقفنا من النتاج الفكرى للحضارة الغربية المعاصرة. وهى قضية كثر الحديث حولها حتى بلغنا فيها درجة الملل، وذلك الملل فى اعتقادى يرجع إلى أننا لخصناها فى إطار قضية قتلت بحثاً دون جدوى وهى "الأصالة والمعاصرة"، حيث تتابعت أحاديث المتحدثين وكتابة الكاتبين حول المواقف الثلاثة المحتملة؛ فإما يقفون موقف المتفوق داخل ذاته الراض للتراث الغربى القديم منه والحديث، وإما يقفون موقف المنبهر بالثقافة الغربية ومنجزاتها فيطالبون بأن نكون غربيين منها وموضوعاً،

وأما الموقف الثالث والذي يمثله المعتدلون من المفكرين فهو محاولة المزج بين الموقفين السابقين، حيث يرون ضرورة أن نكون معاصرين في تصوراتنا ومنهجنا وأصلاء في إحياء ما هو صالح من تراثنا للحفاظ على هويتنا الحضارية.

ولكنى أرى أن للقضية وجهاً آخر يبدو إذا ما نظرنا إليها من زاوية "نظرية المعرفة"؛ حيث إننا نميز فيها بين عارف ومعرفة، بين ذات هي التي تعرف، وموضوع هو الذي نعرفه سواء كانت أداة المعرفة هي الحواس أو العقل أو الحدس أو بهم جميعاً. وإذا ما طبقنا ذلك على معرفتنا بجوانب الحضارة الغربية المعاصرة، لكان من الضروري أن نميز بين "ذاتية العارف" و "موضوعية المعروف"، أو بين "ذاتية الشارح" و "موضوعية المشروح"؛ فما أنتجته التراث الغربي الحديث والمعاصر يمثل بالنسبة لنا باستمرار مادة موضوع المعرفة، وقد درجنا على أن ننقل هذا الموضوع (بكافة مضامينه وأشكاله) ونتوحد معه خاصة في مجال العلوم الإنسانية؛ فعالم الاجتماع مثلاً ينقل النظريات الغربية كالوضعية والماركسية والبرجماتية. ويحاول أن يلوى عنق ظواهرنا الاجتماعية لتعطيه نفس النتائج التي تتلاءم مع ما يؤمن به من نظريات غربية. وكذلك يفعل علماء الاقتصاد وعلماء النفس وعلماء السياسة وعلماء التاريخ.. إلخ.

وإن كان هناك من يعون خطورة هذه المسألة ويحاولون البدء في دراساتهم من واقعنا الاجتماعي أو الاقتصادي أو التاريخي .. وهكذا، فإنهم قلة لم يتوافر لهم المناخ المناسب للعمل كفريق مؤثر في مجال دراساتهم.

وخطورة هذا التيار العام السائد الذي يتوحد فيه الدارسون مع الدراسات الغربية ويتخذونها كنموذج ينبغي أن تبنى عليه دراساتهم، تبدو مما في هذا الاتجاه من عدم التمييز بين "موضوعية المعروف" و "ذاتية العارف"؛ فإن كان علينا أن نلم إماما واسعا بالدراسات الغربية في مختلف مجالات العلوم الإنسانية، فلا يجب أن يمثل هذا الإمام عائقا أمام معرفتنا واكتشافنا لذاتنا، والتركيز على إفراز نظريات ومدارس خاصة بنا ندرس من خلالها مجتمعنا واقتصادنا وتاريخنا .. إلخ.

وفي اعتقادي أننا لن نصل إلى هذه الدرجة الناضجة من العلم إلا بعد إدراك تلك الحقيقة الهامة المتمثلة في أن ما قدمه التراث الغربي من نظريات هي في عمومها نظريات غير صالحة للتطبيق علينا، وعدم صلاحيتها نابع من أن لكل مجتمع ظروفه الخاصة وسيكولوجيته الخاصة وفكره الخاص، بالإضافة إلى أن لكل مجتمع عاداته وتقاليده وقيمه الخاصة. ونحن حينما نطبق تلك النظريات الغربية على أنفسنا نخطئ هذا الخطأ المزدوج؛ خطأ عدم التمييز بين النظرية والتطبيق، وخطأ يتمثل في عدم الثقة بالنفس وبالتالي فقدان القدرة الذاتية على العطاء والإبداع والإضافة.

إن ثمة فارقا هاما بين أن ندرس تلك النظريات الغربية لنتمثلها ونهضمها ونفيد منها على المستوى النظرى، وبين أن ندرسها ونفسر أنفسنا من خلالها أى أن نتخذها قوالب نضع أنفسنا داخلها.

وربما يكون من المفيد هنا أن نعود إلى مثل حضارى نتفهم القضية من خلاله، وأوضح مثل لدينا هو حضارتنا الإسلامية فى العصر الوسيط. لقد كان أمام العلماء والفلاسفة المسلمين تراثا غربيا زائرا هو التراث اليونانى. ولا شك أن أجداننا قد شغلتهم القضية التى تسغلنا الآن: أينقلون عن اليونانيين إبداعاتهم، أم يتوقعون داخل ذاتهم! وكان الحل لديهم إيجابيا وفعالا؛ فنقلوا معظم الإبداعات اليونانية فى مجال العلوم المختلفة، ولكن هل نقلوها لتمثل قيدا أمام إبداعاتهم؟!

النظر فيما أنتجوه يؤكد أنهم أدركوا هذا التمييز بين "موضوعية المشروح" و "ذاتية الشارح". وإذا ما أخذنا مجال الفلسفة كمثل؛ فسنجد أن الفلاسفة الإسلاميين قد شرحوا أرسطو بدءاً من الكندى، الفارابى، ابن سينا، حتى ابن رشد الذى لقب بالشارح الأكبر. لكن هل كانت شروحهم لأرسطو مجرد شروح لفيلسوف يونانى اتبهروا بفلسفته وبمنطقه كما اتبهر به جميع مفكرى العصر الوسيط؟؟

إن القارئ لتلك الشروح يكتشف بوضوح ذاتية الشارح؛ فهم لم يقبلوا من أرسطو إلا ما وجدوا أنه يتفق مع نظرتهم إلى الأشياء،

وما رأوا أنه يتفق مع ما أتى به دينهم الحنيف. وإذا ما نظرنا إلى الأمر من وجهة نظر متخصصة - أى من وجهة نظر دارجى أرسطو وأنا منهم - سنجد أن شروحهم قد خرجت على النص الأرسطى وخالفته وتجاوزته لدرجة أنه من الممكن اتهامهم من هذه الناحية بأنهم أساءوا فهم أرسطو. لكن الحقيقة أنهم لم يكونوا يشرحون أرسطو بقدر ما كانوا يتخذون من أفكار أرسطو - باعتباره الصورة الساطعة للفكر والعلم فى عصرهم - وخاصة ما يتشابه منها مع أفكارهم الدينية والاجتماعية، كانوا يتخذون من منطق وفلسفته أسلحة يواجهون بها أعداء دينهم. فكانهم هنا قد ضربوا عصفورين بحجر واحد؛ فقد كانوا معاصرين حينما تمثّلوا ثقافة عصرهم ونقلوا إبداعات غيرهم وشرحوها. وكانوا أصلاء حينما لم يسمحوا لهذه الثقافة بأن تسيطر عليهم ولا أن تكون عائقاً أمام فكرهم هم. إنهم أدركوا أهمية إخضاع أرسطو وغيره من مفكرى اليونان لتأويلهم هم، بما كان فى ذلك التأويل من خصوصية عناصر الثقافة الإسلامية - العربية آنذاك.

والسؤال الآن، أين نحن من نقل التراث الغربى الحديث والمعاصر؟! إننا لم نتجاوز بعد مرحلة النقل والتبعية لما ننقل لأننا إذا نقلنا وشرحنا، فلا صدق واضح للذاتية فى ذلك النقل والشرح. بل أننا ننقل تلك النظريات الغربية ونطبقها على واقعنا الخاص دون فحص ودون تدقيق، فكانت النتيجة الحتمية أن فقدنا هويتنا أمام

زحف تلك النظريات الغربية وتسلبها لتعشش داخل أدمغتنا أولاً، فواقعنا ثانياً. ومن ثم أصبحنا تابعين للغرب شكلاً وموضوعاً.

لقد غاب الوعي بفحوى هذه القضية وتلك التمييزات إلا من مفكرين أجلاء تمثل لديهم ذلك الوعي يبدأون برفاعه رافع الطهطاوى مروراً بأحمد لطفى السيد وطه حسين إلى استاذنا الكبير زكى نجيب محمود..

فقد بدأ الطهطاوى عصر الترجمة الواعية لعناصر الفكر الغربى، وحاول من خلال اطلاعه على الحضارة الغربية أن ينقل مجتمعه خطوات إلى الأمام، وأدرك آنذاك أهمية البدء بقضية التعليم فكتب "المرشد الأمين فى تربية البنات والبنين" ليوضح أن ما رآه لدى الغربيين من تقدم فى مناهج التربية يوجد مثيله بل أفضل منه فى تراثنا الإسلامى، فكانت دعوته لتعليم البنات والبنين فى ظاهرها مستنقاة من زيارته لأوربا لكن جاء تعبيره عنها مقبولاً لدى الجميع لأنه قام بتأصيل دعوته من خلال تراثه. ولعل فى ذلك ما يكشف لنا عن أسباب تقبل الناس لدعوة رفاة الطهطاوى فى القرن التاسع عشر بينما لم يقبلوا نفس الدعوة من قاسم أمين فى القرن العشرين حينما دعى إلى تحرير المرأة وتعليمها حيث هوجم ليس من غلاة المتشددين فقط، بل من بعض الصفوة من المنقذين الوطنيين وعلى رأسهم طلعت حرب.

ولقد كان أحمد لطفى السيد مترجماً لأرسطو وفى نفس الوقت كان الأستاذ الجامعى الواعى بأهمية أن ينقل ويشرح دون أن يكون

تابعاً، فكان رائداً من رواد نهضتنا الثقافية التي تعتمد على النفس بقدر ما تعرف وتتمثل تراث الغير وثقافته، كما تمثل لدى طه حسين الوعي بأهمية الثقافة الغربية كمنهج يمكن من خلاله دراسة جوانب عديدة من تراثنا؛ فقد نبه إلى أهمية التراث اليوناني الكلاسيكي في إثراء الآداب والفنون العربية الحديثة، باعتبارها كانت من عوامل إثراء الآداب والفنون والفلسفات الغربية في مطلع عصر النهضة. كما قام هو باستيعاب المنهج الديكارتي، وتطبيقه في دراسته للأدب العربي، فهو إذن قد درس ديكارت لا لكي يقع فريسة له ولآرائه الفلسفية، بل ليوظفه ويستخدمه في دراساته لتراثه العربي الأبي. ونفس الشيء فعله أستاذنا د. عثمان أمين مع ديكارت، فقد كان من ألمع دارسي ديكارت والمتخصصين فيه في العالم، ومع ذلك فقد كان الفكر الديكارتي بالنسبة إليه كالمصباح الذي ينير له الطريق؛ فقد قدم فلسفته الجوانبية في كتابه "الجوانبية" وهو يحمل ذلك المصباح الديكارتي دون أن يكون المضمون ديكارتيًا، بل كان عربيًا إسلاميًا.

أما زكي نجيب محمود، فقد حمل مصباح التنوير من خلال العلم والدعوة الملحة إلى طريقه. وقد أخطأ من يظن أنه مجرد داعية لتيار فلسفي غربي هو الوضعية المنطقية؛ فهو قد استخدم الفكر الوضعي باعتباره دعوة واضحة المعالم إلى التفكير العلمي الذي هو طابع العصر الذي نعيش فيه. وقد أكد ومازال يؤكد بكافة أساليب وصور الكتابة أن علينا أن ندخل العصر من بوابة العلم، من خلال

استخدام المنهج العلمى فى كافة دراساتنا العلمية. ولم تكن الدعوة تأثرا منه بالفكر الغربى فقط، فسرعان ما كشف لنا د. زكى فى الكثير من دراساته ومقالاته عن أن هذه الدعوة إلى العقلانية وإلى علمية التفكير موجودة فى تراثنا الإسلامى العربى، وقد طبقها الأجداد، ليس فى دراساتهم الدنيوية العلمية فقط، بل فى فهمهم لأمر دينهم أيضا. وما علينا الآن إلا أن نستعيد هذه الروح العلمية الوثابة النشطة الساعية إلى كشف الجديد باستخدام كل وسائل العصر التكنولوجية.

إن لى قد وعى هؤلاء الأقطاب بأن دراسنا للنظريات الغربية شىء واستفادنا منها وتوظيفها لصالحنا شىء آخر؛ فقد درسوا النظريات الغربية وشرحوها باعتبارها ثقافة العصر التى لا بد أن نفهمها ونفاعل معها، لكنهم وعوا فى نفس الوقت أن عناصر معينة من تلك الثقافة هى فقط التى تلائمنا لأنها تتفق مع ما لدينا من تراث خصب من ناحية، ولأنها تركز على المنهج العلمى فى التعامل مع المشكلات من ناحية أخرى. وهذا أمر مطلوب فى كل الدراسات إنسانية كانت أو طبيعية.

وما علينا الآن إلا أن نعى نفس الدرس الذى وعاه هؤلاء الرواد ونستكمل مسيرتهم عالمين بأنه ينبغى أن نتطور فى اتجاه التخلص من كافة أشكال التبعية للغرب ثقافية كانت أو سياسية أو اقتصادية .. إلخ، وبأن هذا التطور لن يكون إلا إذا أدركنا بوضوح أن هويتنا الثقافية تركز على عناصر أساسية هى:

أولاً : أننا مصريون بحكم المواطنة والحضارة العريقة المتجددة دائماً، وهذا يعنى ضرورة أن نلم بعناصر الثقافة المصرية قديمها وحديثها (فكرية كانت أو تاريخية أو اقتصادية أو جغرافية)، مع الوعى بأن تلك العناصر كانت ولا تزال وستظل فى حوار دائم مع عناصر الثقافة لدول البحر الأبيض المتوسط.

ثانياً: أننا عرب بحكم الموقع واللسان والتاريخ، وأنا أفارقة بحكم الموقع والتاريخ المشترك وباعتبار أننا وهم نخضع لنفس الظروف وينتظرنا نفس المصير.

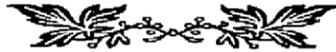
ثالثاً: أننا قوم متدينون — من عصر قبل التاريخ — يمثل الدين ركنا أساسيا من ثقافتنا ويشكل الجانب الأكبر من وجداننا.

رابعاً: أننا نعيش فى عصر لا مكان فيه لمن لا يأخذ بالمنهج العلمى فى التفكير أيا كان المضمون والمشكلة التى يعالجها.

وختاماً، أقول أن التحدى الحضارى الذى نواجهه، والذى تلخصه العبارة الشهيرة "تكون أو لا تكون" يتطلب منا ضرورة الإسراع فى التخلص من التبعية للغرب، كما يتطلب منا سرعة تمثل تلك العناصر وهضمها لتصبح هى حياتنا التى نحياها ومنهجنا الذى نفكر به.

(٤)

ضد العولمة .. (*)



(*) نشرت بجريدة الأهرام تحت عنوان "في مواجهة العولمة" في ١٢/٤/١٩٩٨م.

ضد "العولمة"

لعل ما يجرى الآن على الساحة الدولية فى أزمة العراق مع الولايات المتحدة الأمريكية يفتنح من لم يفتنح حتى الآن بأن منطق "القوة" هو السائد فى عصر ما يسمونه "بالعولمة" و "الكوكبية" أو اختصارا عصر القطب الواحد!.

ولعل فى العودة إلى الماضى البعيد وإلى الماضى القريب من تاريخ علاقات الغرب بالعالم ما يفيد فى فهم أن هذا المنطق "منطق القوة" لامنطق الفهم والحوار المتبادل هو المنطق الوحيد الذى يفهمه الغربيون طوال تاريخهم.

✿ إن للأمريكيين المعاصرين أجدادا فى الفكر اليونانى القديم هم من كانوا يلقبون فى القرن الخامس قبل الميلاد بالسوفسطائين. إنهم كانوا يؤمنون بنفس ما يريده الفلاسفة الأمريكيون اليوم من مبادئ المنفعة والقوة. وحينما طرح موضوع "العدالة" للنقاش فى إحدى محاورات أفلاطون، محاوره "الجمهورية" هب أحد السوفسطائين ويدعى تراسيما خوس قائلا: إن العدالة تسير مع مصلحة الأقوى وجودا وعمدا. فالعدالة هى ما يؤمن به الأقوى وما يفرضه على الآخرين.

❁ وليس بعيد عن ذلك الفهم الملتوى لمعنى العدالة، قول أرسطو الفيلسوف الكبير لليونان القديمة أن الحرب جائزة فى حالة واحدة هى حالة "اصطياد الأرقاء"؛ إنه على الرغم من أن أرسطو هو القائل بأن ماهية الإنسان أنه ذلك "الحيوان العاقل"، إلا أنه حينما يتحدث عن الحرب لا يرى لها ضرورة إلا حينما يقل عدد العبيد فى دولة المواطنين الأحرار، "دولة المدينة" بالاصطلاح اليونانى القديم. ومن ثم يمكن لدولة المواطنين الأحرار من اليونانيين أن تثن الحرب على جيرانها من "البرابرة" أى الأجانب حتى يمكنها توفير العدد اللازم من هذه "الآلات الحية" لربة المنزل أى من العبيد! إن إنسانية الإنسان إذن مقصورة فى عرف أرسطو على اليونانى الحر، أما ماعدا ذلك فإنهم أناس لا يصلحون إلا للرق والعبودية!

❁ ظهر فى اليونان القديمة قوة اقليمية عظمى هى الدولة المقدونية قادها الملك فيليب والد الإسكندر الذى عرف فيما بعد بالاسكندر الأكبر. وحينما تولى الاسكندر الحكم وكان عمره آنذاك حوالى ١٧ عاماً بدأ اجتياح الدول اليونانية الأخرى وبدأ فى غزو بلاد الشرق فارس والهند ومصر .. فكتب له أرسطو الذى كان مُعلمه قبل أن يصل إلى الحكم رسالة سماها "فى الاستعمار" فحواها أنه لا يوافق تلميذه الاسكندر على غزو الشرق لأن من شأن هذا

الغزو القضاء على تميز الجنس اليونانى حينما يحتك اليونانيون بالشرقيين وهم أصحاب حضارات أعرق! فماذا كان رد التلميذ الغازى! رد قائلا: إنه يغزو الشرق حتى يجعل الثقافة اليونانية والفكر اليونانى هو فكر العالم وثقافته. وبالطبع فلم يسمع التلميذ صاحب منطق القوة لنصيحة الأستاذ صاحب الرأى والخبرة، فحقق غزواته وتواصلت انتصاراته العسكرية والسياسية لكنه لم يحقق عولمة الفكر اليونانى كما توقع لأن الشعوب لا تتنازل بسهولة عن ثقافتها الوطنية خاصة إذا كانت عريقة عراقية حضارات الشرق بالقياس إلى الحضارة اليونانية الفتية الغازية. لقد انصهر فكر اليونان فى فكر الشرق وعاد الفكر اليونانى شرقيا فى اتجاهاته وملامحه كما بدأ شرقيا فى اتجاهاته وملامحه منذ القرن التاسع قبل الميلاد.

❦ وإذا تركنا الماضى البعيد ونظرنا فى الماضى القريب مرورا بعصر وسيط تعلم فيه الغربيون لأول مرة المعنى الحقيقى للعدالة ولحقوق الإنسان على يد العرب والمسلمون ومن خلال القرآن الكريم الذى تدارسوه جيدا فى فجر عصر نهضتهم الحديثة، ونقلوا عنه وعن المؤمنين به كل ما تغنوا به من مبادئ الحق والعدل والمساواة والإخاء بين البشر .. إلخ. فماذا نجد فى هذا الماضى القريب؟! نجدهم وقد انقسموا فريقين؛ الشرق الماركسى والغرب الرأسمالى.

تقود روسيا الفريق الأول، وتقود أمريكا الفريق الثاني. ورغم أن القوة الأولى كانت في يد أناس متحضرين وإن امتلكوا أو اعتقدوا في فلسفة استبدادية جامدة. ورغم أن القوة الثانية كانت في يد أناس همجيين تجمعوا من أصول وأعراق شتى في تلك الأرض الجديدة هربا من فقر أو من جرائم أو سعيا وراء تحقيق مجد لم يستطيعوه في بلادهم الأصلية. أقول رغم هذا الاختلاف بين القوتين الأعظم في ذلك الماضي القريب إلا أن الهدف كان واحدا وهو السيطرة على الشعوب الأخرى والاستبداد بها واستنزاف مواردها تحت نفس الحجة حجة تحديث هذه الشعوب وتمدينها!!.

إنه نفس الهدف الذى سعى إليه المستعمر الأوربي سواء كان فرنسيا أو انجليزيا أو برتغاليا أو أسبانيا في القرن التاسع عشر. لقد استخدم هؤلاء القوة العسكرية فى غزو العالم وقهر شعوبه بحجة تحديثها وتمدينها وإعمارها!!.

لقد كتب جارودى أروع مؤلفاته بعنوان "حوار الحضارات" واصفا ما صنعه الغربيون طوال تاريخهم بشعوب العالم الأخرى بأنه صنع "الشر الأبيض". وأطلق هذا الوصف وصف "إمبراطورية الشر الأبيض" على الغربيين. وهو أدق وصف يمكن أن توصف به أمم الغرب طوال تاريخها. فهى الأمم التى كانت دائمة السطو على

إنجازات الآخرين. ودائمة الاعتداء على حقوقهم وأراضيهم ومواردهم تحت حجج واهية ودعاوى فارغة لا تتطلى على أحد!! لكن هذه الدعاوى الفارغة كانت تفرض نفسها على الآخرين بالقوة العسكرية.

إن مقدمه جارودى فى ذلك الكتاب الهام من تعرية لما يسمى بالحضارة الغربية وهى فى واقع الأمر ليست سوى مدينة مادية فارغة من أى محتوى روحانى أو معنوى!!، أقول إن ما قدمه فى هذا الكتاب كان حقائق شديدة الوضوح تكشف كيف تعامل الغربيون مع شعوب العالم الأخرى من منطلق القوة وفرض الرأى. وإتى رغم موافقتى له على كل ما قال إلا أنى لم أوافق على ما طرحه من ضرورة "الحوار الحضارى"؛ فقد تصور أنه يمكن للغربيين لليوم إذا ما وعوا تلك الحقائق المرة من تاريخهم البعيد والقريب أن يتواضعوا وأن يعترفوا بأهمية الثقافات الأخرى وبإمكانية الاستفادة من المنجزات الحضارية للشعوب الأخرى. ومن ثم أن يقبلوا الحوار مع أبناء هذه الحضارات فى عالم يستفيد فيه الجميع من الجميع ويتبادلوا الخبرات المعنوية والمادية.

وقد رددت على ذلك التصور حين قرأتى للترجمة العربية للكتاب تحت عنوان "الحوار المستحيل بين حضارات الشرق

وامبراطورية الشر الأبيض" (*). وكان فحوى الرد أن الحوار لا يكون إلا بين أناس يؤمنون بالحوار ويقبلون الرأي الآخر بأريحية وبحب وللأسف فرغم أن الشائع عن الحضارة الغربية أنها حضارة الرأي والحوار فإن العكس تماما هو الصحيح. فهي حضارة لا تؤمن إلا بالحوار مع ذاتها وإذا قبلت من الحضارات الأخرى أى شئ فإنها لاتقبله إلا بعد أن يصبح جزءا من نسيجها ومنسوبا إليها لا إلى أصحابه الأصليين!! إن الحوار كما قلت فى ذلك الرد لا يكون إلا بين متكافئين ومع الأسف فإن الغربيين منذ فجر حضارتهم فى اليونان القديمة كانوا عنصريين ينظرون إلى الآخرين نظرة استعلاء. ولا تزال هذه النظرة الغربية للآخرين هى السائدة رغم كل ما يطفو على السطح من قيم يروجها الإعلام وليست من الواقع فى شئ!!.

وإذا كان ذلك كذلك فإن الحوار لا يمكن أن يقبله الغربيون إلا فى ظل وجود القوى المتكافئة فإن كنت قويا بما فيه الكفاية فهناك مساحة للحوار وللتفاهم وإلا فلتقبل ولتذعن لكل ما يقال لك بدون مناقشة أو إبداء رأى آخر!!.

وهذا هو ما نراه اليوم ببساطة وبدون أى موارد أو خجل. ولعلنا بذلك نكون قد فهمنا الدرس. فالحوار لا يكون إلا بين قوى اقتصادية وعسكرية متكافئة. هذا هو المنطق الوحيد الذى يفهمه

(*) راجع المقالة الثانية عشر من هذا الكتاب .

الغربيون. فهل نحن قادرون على تحقيق هذا التكافؤ حتى يسمعنا الطرف الآخر الذى لا يؤمن إلا بعدالة الأقوى؟! هذا هو السؤال ونحن دائما فى انتظار إجابة من لا يزالون يؤمنون بسداجة بقم العولمة والكوكبية الأمريكية!!

🕌 ولكى أساعدهم على الإجابة الصحيحة. فإن عناصر القوة اليوم لا تقف عند حد القوة العسكرية، كما لا تقف عند حد القوة الاقتصادية، وإن كانت أهم عناصر القوة وأشدّها تأثيرا وأكثرها مساعدة فى فرض الهيمنة على الآخرين؛ فعناصر القوة اليوم قد اتسعت لتشمل قوة المعلومات والإنترنت بما تشتمل عليه من قنوات فضائية ضخمة ووكالات إخبارية ترصد دبة النملة على أرض الغير، وصحف عابرة للقارات وخلافه!، واتسعت لتشمل أيضا العديد من الاتفاقيات الدولية التى وضعت جميعا لتسهيل مهمة الهيمنة الغربية على بقية شعوب العالم كاتفاقية الجات الاقتصادية واتفاقيات الحد من الأسلحة النووية والبيولوجية وغيرها!!.

إن وسائل الهيمنة على الآخرين وفرض الرأى الغربى عليهم قد تتغير من عصر إلى عصر لكنها تصب دائما فى تحقيق نفس الهدف. هدف وجود الرأى الواحد والثقافة ذات البعد الواحد والخبرات التى تصب فى معين واحد. إنه دائما "الغرب" سواء قادته

اليونان قديماً أو أوروبا حديثاً أو أمريكا في العصر الحالي. ونحن نعيش في أسوأ عصور الهيمنة الغربية لأننا كما قلت نعيش في عصر تعددت فيه صور للقوة الغربية، لدرجة جعلت البعض منا يتصور أنه إنما يفكر معبراً عن استراتيجية عربية مختلفة وهو في الواقع مجرد آلة في ترس الدعاية للاستراتيجية التي يريد أن يهاجمها ويقف ضد مخططاتها!!.

❁ وعلى ذلك فليس أماننا من سبيل للمواجهة إلا سبيل رفض قيم العولمة والكوكبية والجات وعصر المعلومات لأنها جميعاً كما قلت تصب في إطار فرض الهيمنة الغربية على شعوب العالم؛ فما المقصود بالعولمة إلا "غربنة" العالم أجمع وجعلهم شعباً ما سخة لا هوية لها ولا استقلال، فلا هي قد حافظت على أصالتها ودافعت عن قيمها الثقافية وهويتها الحضارية المستقلة وتمسكت بها، ولا هي بقادرة على أن تكون غربية كالغربيين!!.

إن رفض قيم العولمة الغربية ليس مجرد كلاماً نقوله وكفى، بل ينبغي أن يتحول إلى واقع يبدو في مخططاتنا الثقافية والاقتصادية والسياسية .. إلخ. إن قوة أي أمة إنما تنبع من داخلها ومن إعادة البناء الذاتي لثقافتها واقتصادها وليس بالاعتماد على الآخر خاصة إذا كان هذا الآخر هو "الغرب الرأسمالي"؛ فالتاريخ العام للحضارات وللشعوب يؤكد هذا كما سبق وأشرت إلى ذلك.

إن الاعتماد على الغرب لبناء الذات هو محض خرافة. علينا من الآن إذا ما أردنا أن ننجو بأنفسنا قبل فوات الأوان أن نعيد بناء الذات الثقافية باستعادة قيمنا الأصيلة دينية واجتماعية واقتصادية، وإعادة بناء قوتنا الاقتصادية والسياسية بل والعسكرية مستعينين بأمم الشرق الأخرى. فبناء القوة الذاتية يبدأ من بناء القوة العربية الاقتصادية والسياسية والعسكرية المشتركة ويتسع ليشمل بناء القوة الإسلامية المشتركة وهكذا فهذا هو المجال الوحيد الذي ينبغي أن نتحرك فيه قبل أن تبطلنا عولمة الغرب وآلتها الجهنمية !.

(٥)

نحن وعصر المعلومات
والإنترنت (*)



(*) نشرت بجريدة الأهرام فى ٢٧/٧/١٩٩٧م.

نحن وعصر المعلومات والانترنت

" معلومات .. انترنت .. "

ياتبقى حياتكم زى الزفت "

لا أدري لماذا يرّن هذا الهاتف فى أذناى كثيرا فى الفترة الأخيرة لدرجة جعلتنى أتصور أن ذرات الهواء قد تحولت إلى أشخاص تهتف بهذا الهاتف طوال النهار والليل!! وقد بلغت قوة الهاتف درجة لم أعد قادرا معها إلا على التفكير فى حالنا المتدهورة ونحن بعد لم ندخل عصر المعلومات والانترنت!! ولكم تأملت الأمر مليا: هل نحن حقا جديرون بالدخول فى هذا العصر؟! وهل من الضرورى أن ندخله باعتباره البوابة الملكية لدخول القرن الحادى والعشرين كما يقولون!؟

وكم قرأت عن ملامح هذا العصر الجديد وأدواته التكنولوجية التى تتلخص فى كم هائل من المعلومات تحملها رقائق الكمبيوتر بدلا من التقارير والكتب والملفات.. إلخ وتتساب هذه المعلومات إلى كل من يريدھا بمجرد أن يضغط بإصبعه على زر صغير. وما إن عرفت ذلك حتى قلت فى بلاهة: إذا كان ذلك هو المدخل إلى القرن القادم فما أسهله وما أبسطه إذ أن كل ما نحتاجه هو مجرد أجهزة

نستوردها واشتركاكات ندفعها ورقائق تحمل المعلومات وما علينا بعد قليل من التدريب على استخدام هذه الاجهزة إلا أن نضغط على ذلك الذر أو ذاك فتنساب أمامنا المعلومات فى سهولة ويسر!.

لكن سرعان ما أعادنى هيراقليطس الفيلسوف اليونانى القديم إلى وعيىَ المفقود حينما أعدت قراءة قوله: "إن المعلومات الكثيرة لاتكفى للفهم!!". وقلت: حقا إن المسألة ليست مجرد معلومات. فكم جامع للمعلومات هو فى حقيقة أمره "كالحمار يحمل أسفارا" وهو لايدرى شيئا عما يحمل!!.

وحينئذ كان السؤال الذى ألح على: أى معلومات نجمع وبأى طريقة يمكن تحليل وفهم هذه المعلومات للاستفادة منها؟! وهنا أدركتُ كما أتمنى أن يدرك كل من يدعوتنا إلى سرعة الدخول فى هذا العصر الجديد، أن المسألة ليست مسألة كثرة معلومات. وإنما مسألة كيف نتلقى هذه المعلومات، وعلى أى محك سيكون هذا التلقى؟ وما الذى يمكن أن نستفيدة من هذا السيل المعلوماتى!؟

والأخطر من ذلك أنه لابد أن ينتبه السادة الذين يلحون علينا فى أن نكون معلوماتيين، أنه ينبغى التمييز بين المنتج والمستهلك للمعلومات تماما كما فى عالم السلع والصناعات. فهل هى دعوة من جانبهم لنكون مجرد مستهلكين! إذا كان ذلك كذلك فبئس الدعوة

•—————•
وبئس الداعى! فهو يريد أن يجعلنا "كالحمير نحمل أسفارا" ونحن لم
ولن نكون كذلك إن شاء الله.

إن التدفق المعلوماتى حتى الآن هو من جانب الغرب. وهو
لايتيح لنا منها إلا ما يسمح به وما يريد أن نعرفه، لا ما نريد نحن
أن نعرف؛ فهل يمكنك أن تعرف أسرار صناعة الطائرات أو أى
صناعة غيرها عبر "الانترنت"؟! وهل يمكنك أن تعرف عبره أى
سر من أسرار نظرية علمية أو مُخترع مُهم؟!.

إن المتاح من المعلومات أيها السادة هي المعلومات عديمة
المنفعة أو الفائدة على الصعيد الاستراتيجى. إنها مجرد معلومات
التسلية والترفيه ولا أقول معلومات الدعوة إلى الفساد والإفساد!. إنها
المعلومات التى يمكن أن تغرق فيها فنقتل فيك فى معظم الأحيان
القدرة على الإبداع والابتكار!. ولذلك فإن تلقى المعلومات ينبغى أن
يكون بقدر وأن يتوقف عند حدود معينة ليتيح الفرد لنفسه التفكير فى
هذه المعلومات، وفى جدواها، وفى كيفية الاستفادة منها، هذا إذا
كانت بالفعل هامة ومفيدة!!.

ومن جانب آخر، فإن السؤال الأكثر إلحاحا: هل يمكن أن
نتحول فى هذا المجال المعلوماتى من الاستهلاك إلى الإنتاج؟!.

أعرف أننا نستطيع ذلك فى بعض المجالات مثل مجالات الاقتصاد والتجارة والسياحة. وقد بدأنا فعلا فى هذا الطريق. لكن إلى أى مدى يهتم الآخرون بما نسجله من معلومات فى هذه المجالات أوفى غيرها، وإلى أى مدى يمكن أن تعود علينا بالنفع والفائدة؟!.

إنها تساؤلات ينبغى أن نفكر فيها جيدا. وقبل أن يسارع المتحمسون إلى الصياح والاحتجاج، أسارع أنا قبل أن يضعوننى فى خانة المتخلفين والانهمامين والرجعيين غير القادرين على الاستفادة من أعظم منجزات العصر، أسارع إلى القول:

انظروا فى مجال واحد مهم من مجالات حياتنا المعاصرة، بل إلى جزئية واحدة من جزئياته؛ انظروا فى نشرة أخبار التاسعة لتجدوا بعض الإجابة على تلك التساؤلات! فنحن لا نزال نذيع أخبار العالم المتقدم والمتخلف بما فيها أخبار الرياضة من واقع ما يأتينا من معلومات عبر الشبكات الإخبارية العالمية؛ فأخبار الدورى الاسكتلندى والبرتغالى وغيره تأتينا ونذيعها فورا، فى الوقت الذى قد لا نهتم فيه بإذاعة نبأ عن مباراة جرت عصر نفس اليوم فى الدورى المصرى بعيدا عن القاهرة!!

إلى هذا الحد أيها السادة بلغت سيطرة التدفق المعلوماتي
للآخر على إعلامنا!! فما بالكم بالأفراد والهيئات الأخرى التي
لاتملك نفس الإمكانيات والقدرات الهائلة التي يملكها الإعلام عندنا!!
إنن فلنخلع عنا أولا "بردعة الحمار" ولننمى مهارات الفهم والتحليل
والنقد والتأويل والمراجعة عند شبابنا من خلال نظام تعليمي متطور
قبل أن نقذف بهم فى أتون عصر المعلومات والانترنت والعولمة
والكوكبية وما بعد حداثة .. إلخ ..

(٦)

التتويرون العرب
ورسالتهم الحقيقية^(*)



(*) نشرت بجريدة الأهرام فى ١٦/١/١٩٩٤م.

التتويريون العرب ورسالتهم الحقيقية

يربط الكثيرون خطأ هذه الأيام بين التتوير والعلمانية؛ فكل تتويرى ينبغي أن يكون علمانيا بل لا بد أن يكون كذلك، وكل علمانى يعد داعية للتتوير!! وفى إطار هذا الخطأ يتجه التتويريون - العلمانيون أو العلمانيون - التتويريون إلى الهجوم المستمر على ما يصفونه بالتيار السلفى الإسلامى الجامد!! فبينما يعتبرون أنفسهم قادة للتتوير ودعاة للتقدم يعتبرون الإسلاميين دعاة الجمود والعودة إلى الوراء!!.

ومن عجب أن هذه النخمة أصبحت هى السائدة الآن فى الكثير من الأجهزة الاعلامية العربية المختلفة دون إدراك لما يترتب عليها من نتائج خطيرة ومؤسفة. ولعل أبسط هذه النتائج هو وقوعنا فى براثن للتغريب والتبعية وهذا ما هو حادث الآن بالفعل؛ فلقد دهشت حينما تصفحت العدد الأخير من مجلة للنقد الألبى المصرية "قصول"، وبعض أعداد مجلة "القاهرة" ووجدت أنهما - رغم صدورهما عن واحدة من أعرق وأكبر الأجهزة الثقافية الحكومية فى العالم العربى - أصبحتا بوقا لنشر الفكر والآراء النقدية الغربية سواء بأقلام الكتاب الغربيين أنفسهم أو بأقلام للكتاب العرب الذين يتباهون بنقل هذه الأفكار والآراء الغربية بحذافيرها، وكأنه لم يعد يكفيننا ما نحن فيه من سيطرة غربية على العقل العربى عبر

أجهزة التلفزيون والإذاعة، وعبر نظام البعثات والمراكز الثقافية المنتشرة في أرجاء العالم العربي، وعبر الأجهزة الاستشارية المختلفة، فيأدرنا بتسليم مجلاتنا الثقافية أيضا فأفرنا صفحاتها للمزيد من هذه الهممة الفكرية والنقدية للغربيين!!.

إن هذه المجلات الثقافية العربية والتي تصدرها المؤسسات والهيئات العربية سواء كانت حكومية أم شعبية قد أسست لنشر الوعي وبتث الفكر العربي أساسا، ولم تتفق الشعوب والحكومات العربية عليها لتصبح أداة لنشر الفكر والآراء الغربية وتدشينا لهيمنتها وفرض سيطرتها على عقول شباب للمفكرين والأدباء للعرب!!

إن التنوير والعلمانية يا من توحدون بينهما من أصلين مختلفين وإن ارتبطا معا في فترة من فترات النهضة الغربية الحديثة؛ فقد ظهرت العلمانية - بفتح العين وتشديد اللام - في الغرب كدعوة للفصل بين الدين وبين شئون الحياة خاصة الشئون السياسية والعلمية على يد مجموعة من الفلاسفة والمفكرين من أمثال دانتى ومكيافيللي وبرونو منذ أواخر القرن لخامس عشر وأوائل القرن السلاس عشر، وكان لظهور العلمانية في الغرب العديد من الأسباب التي يعرفها للكثيرون وأهمها هيمنة الكنيسة الغربية في ذلك الوقت على كل شئون الحياة في الغرب ووقوفها عقبة أمام التطور والتجديد في كافة مجالات العلم والفلسفة والسياسة .. إلخ.

فكان لابد من أن يكسر المفكر والعالم الغربى طوق الحصار المفروض عليه وأن يتخلص من الجمود - الذى ظل لأكثر من عشرة قرون كاملة - عبر هذه الدعوة إلى الفصل بين الدين وبين كافة الشؤون الدنيوية؛ وقد استند المفكرون الغربيون فى هذا على القول الدينى المأثور "أعطى ما لقيصر لقيصر وما لله لله!".

وكلنا يعلم أن هذه الدعوة قد أتت ثمارها فى الغرب، وبدأ التطور الفكرى والعلمى وبدأت النهضة الغربية الحديثة على يد أعلامها المشاهير من أمثال بيكون وديكارت فى الفلسفة وكبلر ونيوتن فى العلوم، وهكذا انساب تيار التجديد الغربى فى مجالات الفلسفة والعلم أولا ثم أعقبه التطور والتجديد السياسى الذى كان داعيته جون لوك مؤسس الفلسفة الديمقراطية الليبرالية، وقد استند المفكرون الذين لقبوا بالتتويريين من أمثال فولتير وديدرو وروسو ومونتسكيو على فلسفة ديكارت العقلية، وفلسفة بيكون وهوبز التجريبية، وعلى آراء لوك الليبرالية، ودعوا إليها وطوروا فيها وأضافوا إليها فكانت الحركة التنويرية الداعية إلى الحرية والمساواة والإخاء فى فرنسا ومنها انتشرت فى أرجاء أوروبا ثم أمريكا.

ومن هنا ارتبطت الحركة التنويرية بالدعوة العلمانية الداعية إلى الفصل بين الدين وبين كافة الشؤون الدنيوية فى الغرب. ورغم

ما حققه هذا الارتباط التاريخي بين العلمانية والتتوير من تطور في الغرب استمر حتى منتصف القرن الماضي أو حتى أواخره، إلا أن النتائج السلبية لهذا التطور الذي ركز على اشباع الجوانب المادية للإنسان وأهمل الجوانب الروحية بدأت تظهر بقوة خلال القرن العشرين. وهاهو الغرب الآن يزرع تحت أعباء المادية المفرطة في كل نواحي الحياة، وهاهم فلاسفته من أمثال اشبنجلر وتوينبي واشفيتسر يعودون إلى المناداة بضرورة إعادة التوازن بين التطور المادي للإنسان وبين تنمية الجوانب الروحية والأخلاقية فيه !! وإلا فإن انهيار الحضارة الغربية قائم لا محالة!

وهكذا فإن التتوير الغربي في القرن العشرين لم يعد يستند على الأفكار العلمانية التي فعلت فعلها في القرون السابقة وانتهت، إن التتوير الغربي الآن - وعلى التتويريين العلمانيين العرب أن يتحققوا من ذلك - بدأ يتجه نحو إبراز دور الفكر الديني والأخلاق في حياة الإنسان، وأصبح تنمية الحس الديني والروحي أساساً من أسس التربية الحديثة لدى التتويريين الغربيين المعاصرين.

وليس ببعيد عن هذا الاتجاه المعاصر في الغرب ما نراه من اتجاه المفكرين الغربيين المعاصرين إلى الدعوة إلى "الحوار بين الحضارات" وبالذات إلى الحوار بين الحضارة الغربية وحضارات

الشرق الروحية، وهم يستهدفون من ذلك افراغ الحضارات الأخرى من مضمونها الروحي والاستفادة من ذلك فى تغذية الحضارة الغربية التى أصبحت جسدا بلا روح، وقد نجحوا فى فعل ذلك من قبل مع الاشتراكية الماركسية التى أفرغوها من مضمونها الاجتماعى وغذوا به شريان الرأسمالية، فبقت الرأسمالية واستمرت بينما انهارت الماركسية لوقوف أصحابها عند مبادئها الجامدة دون أن يسعوا إلى تجديدها وتطويرها!!

وليس ببعيد عن ذلك أيضا ما نراه من اتجاه بعض المفكرين الغربيين الآن إلى الإيمان بالاسلام كدين أسمى لأنهم وجدوا أنه الدين الوحيد الذى يوازن بين مطالب الإنسان المادية وبين مطالبه الروحية، ووجدوا أنه الدين الذى يحث الإنسان على ضرورة البحث والتحصيل فى جنبات الكون بغرض المعرفة والاستفادة من إمكانياته المادية بدون اعتداء صارخ على الطبيعة وكائناتها الأخرى، ووجدوا أنه الدين الذى فتح الآفاق أمام العقل الإنسانى ليكون أساسا للإيمان وأساسا للعلم فى آن واحد.

ومن المؤسف حقا أنه فى الوقت الذى أدرك فيه المفكرون الغربيون ذلك فأمنوا بالإسلام، نجد أن التنويريين العرب يشنون حملة علمانية ضد الإسلام والإسلاميين ويدعون أنهم إنما يحاربون فقط بعض الإسلاميين المتطرفين وأفكارهم الهدامة!!

والحق أن هذا الكلام ظاهره حق وباطنه باطل؛ لأن ما نراه فيما يكتبون إنما هو اتجاه صارخ نحو تغريب كل شيء، ودعوة إلى محاذاة النموذج الغربي في كل شيء! إن أجهزة الدعاية الغربية التي تتناقل أبقاها هذه الحملات لا تفرق بين الإسلام وبين المسلمين المتطرفين، بل هما في نظرها شيء واحد!! ولذلك فإن المثقلى عن هذه الأجهزة ينظر إلى الإسلام وإلى المسلمين ككل على أنهم دعاة للتخلف والجمود.

إن ما أتمناه من التتويريين العرب هو أن يتوقفوا عما يكتبونه الآن ليعيشوا لحظة صدق مع النفس. وليتأملوا معى هذه التساؤلات: هل يحق لمفكر عربى أن يكون أداة لنشر بضاعة غربية ثبت فسادها وفشلها؟! هل يحق لمفكر عربى أن يكرس التبعية والتغريب فى الوقت الذى ينبغى أن يكون فيه رائدنا فى الخروج من أسرهما؟! وهل يجوز لمفكر عربى مخلص - وتحت تأثير بعض ظواهر الانحراف الفكرى أو الفهم الخاطئ لبعض شباب المسلمين - أن يكون أداة تشارك فى الحملة على الإسلام وعلى كافة المسلمين ونحن فى عصر اشتدت فيه هذه الحملة ولم يعد أمام الغرب من عدو يحاربونه سوى الإسلام والمسلمين؟!

وأخيراً، هل يجدر بمفكر عربى مخلص أن يكتب ويررد أفكاراً غربية عن الإسلام دون أن يضطلع هو بدور مستقل فى

دراسته دراسة متأنية واعية وبيان جوهره الحقيقي كدين يدعو للعقل
وللعلم وللحرية، كدين يكرم إنسانية الإنسان ويقدم حرمانه ويرعى
حرياته؟!!

إن التنوير الحقيقي الذى ينبغى أن نتبناه وندعوا إليه هذه الأيام
هو التنوير المستند على بيان الإسلام فى وجهه وصورته الحقيقية
أمام دعاة تشويهه وتشويه من يؤمنون به!!

إن التنوير الحقيقي الذى ينبغى أن نكون دعائه لا يكون إلا
بعد أن يتخلص دعاة التنوير العلماني من تبعيتهم التى طالت والتى
طالما انتظرنا أن يتخلصوا منها، وأن يفتحوا عقولهم ويفسحوا
صدورهم وصفحات مجلاتهم وصحفهم لكتاب جدد ولآراء جديدة
أصيلة، وأن يسعوا إلى اكتشاف المواهب الأدبية والنقدية والفكرية
العربية الواعدة بمسقبل أفضل يكون أكثر أصالة، لا أن يسدوا أمامها
المنافذ فى الوقت الذى يفتحوها على مصراعيها أمام الكتابات
والآراء الغربية!!.

والحق أن أخشى ما أخشاه الآن وبعد أن قرأوا تلك السطور
أن تنهافت الأقلام وتتعالى الأصوات متهمّة صاحبها بأنه ضد التنوير
- كما يفهمونه - ويأته من دعاة التخلف والعودة إلى الوراء، وهذه
مقولة طالما رددوها وسجنوا فيها كل من يخالفهم فى الرأى!

والواقع أنني وغيرى من دارسى الفلسفة الغربية وعشاقها أبعء ما نكون عن ذلك، وكل ما هنالك أنني أرى وفى هذا الوقت بالذات أن على المفكر العربى أن يكون مخلصا وموضوعيا فى تناول قضايا وطنه، وألا يكون تحت أى ظرف خاضعا لأى سلطة سوى سلطة عقله الراعى والاخلاص لدينه ولأمته.

وليس معنى ذلك أنني أدعو إلى الانغلاق أو الانكفاء على الذات أو أنني أدعو إلى "قطيعة معرفية" مع الغرب، لا وألف لا. إن ما يعنىنى هنا هو أن نكون أكثر التزاما بالتعبير عن قضايانا، وأن ندافع فيما نكتب عن مصالحنا وهويتنا الحضارية، وألا تغمينا الهيمنة الإعلامية الغربية عن إدراك جوهر الصراع الحضارى القائم والذى يديره الغربيون بنجاح وبدهاء شديدين وفق مصالحهم دون أن يضعوا فى الاعتبار أى مصالح للآخرين.

إننا كمفكرين دائما ما نعيب على رجال السياسة والاقتصاد تبعيتهم وعدم قدرتهم على بناء الذات المستقلة سواء فى إطار سوق عربية أو إسلامية مشتركة، أو فى إطار صورة من صور الوحدة السياسية!!، بينما ينبغى أن ندرك نحن أولا أن بناء الذات المستقلة سياسيا أو اقتصاديا إنما يبدأ من قدرتنا نحن على بلورة عناصر تلك الذات على الصعيد الفكرى أولا بالكشف عن عناصر هويتنا

الحضارية المتفردة بمختلف تجلياتها الدينية والفلسفية والعلمية والاجتماعية والأدبية والفنية.. إلخ، وبعد ذلك يأتي دور شك دور الساسة ورجال الاقتصاد!!

إننى أعتقد صادقاً أن دور المفكرين العرب وخاصة الكبار منهم؛ أولئك الذين يمتلكون القدرة على التأثير من خلال سيطرتهم على أدوات التأثير - من مجلات وصحف وإذاعة وتلفزيون .. إلخ - يفوق فى أهميته فى الوقت الحاضر دور الساسة ورجال الاقتصاد؛ لأن السياسى والاقتصادى مقيد فى تبعيته بشبكة لا يستطيع الفكاك منها بسهولة، بينما المفكر والأديب والفنان يستطيع التخلص من التبعية إذا ما أحسن التأمل وأمعن الفكر وأخلص النية فى التعبير عن قضايا وطنه ودينه مراعيًا مصالح أمته العليا واستقلاله الحضارى.

(٧)

الحدثيون العرب .. والعيش بين الكلمات (*)



(*) نشرت بجريدة "البيان" اليومية الإماراتية-التي تصدر عن إمارة دبي بدولة الإمارات العربية المتحدة في ١٩/١١/١٩٩٣م.

ضد العولمة

"الحداثيون" العرب والعيش بين "الكلمات"

لا يزال تيار "الحدائثة" فى الأدب العربى المعاصر هو للتيار
الأعلى صوتا والأكثر ضجيجا بين "النخبة" المتففة فى العالم العربى.

ورغم ذلك الانتشار وهذا الضجيج، ورغم أننى من قراء
الأدب العربى قديمه وحديثه، إلا أننى مازلت لا أفهم معظم ما يكتبه
شعراء "الحدائثة" العرب، وإن سئلت بعد قراعتى لأى قصيدة من
قصائد هؤلاء الشعراء - الذين يمثلون أبناء جيلى - لقلت نفس ماقاله
سقراط فيلسوف اليونان الشهير حينما سئل عن رأيه فيما كتبه
هيراقليطس - وكان مشهورا بأنه الفيلسوف الغامض الملعز - "إن
ما فهمته يبدو عظيما وما لم أفهمه يبدو أعظم"!!

ولذلك فأنا فى حيرة شديدة من أمرى؛ هل أنا عاجز - رغم
محاولاتى الجادة - عن أن أفهم، بعد هذا العمر الطويل فى القراءة
والفهم والتحليل ومعرفة أسرار لغتنا العربية، شعراء عصرى،
والمفروض أن أكون الأقدر على فهمهم ومتابعة ما ينتجون لأنهم إنما
يعبرون عنى وعن مشاكلى وهمومى وآلامى وأفراحى.. إلخ.؟! أم
أنهم هم العاجزون عن أن يصلوا إلىّ وفضلوا على ذلك العيش وسط

كلمات مترابطة هي أولا وأخيرا عاجزة عن أن تصل إلى متلقيها
اللهم إلا إن كان المتلقى هو نفسه الكاتب!!

والأمر الذى يحيرنى أكثر هو أننى أجدهم وفى كل مناسبة
يقولون: أنهم شعراء ثوريون، وحاولت أن أفهم معنى هذه الثورية؛
أهى ثورية التمرد على الشكل القديم فى الشعر! قد يكون ذلك! وإن
كان ذلك هو معنى الثورية فأنا معهم وقد تفهمت ذلك منذ بداية
السبعينات وعبرت عنه فى مجلة "الجديد" التى كانت تتبنى ذلك
الاتجاه الحديث فى الشعر! لكن لا أتذكر فى ذلك الوقت أنه كانت
هناك كتابات "حدثية" أو شىء مما يسمونه الآن "الحدثية"!!

لكننى شيئا فشيئا اكتشفت أنهم يقصدون بالثورية معنى آخر؛
لأنهم يرون "أن الشعر الثورى لا يكون فعلا إلا فى جمهور يمارس
العمل الثورى"، وهذا ما قاله زعيمهم أدونيس فى كتابه "زمن
الشعر"؛ فالثورية عندهم إذن هى ثورية التأثير فى الجمهور!!

وحيثما اكتشفت ذلك الهدف الذى يسعون إليه، وتلك الثورية
التى يريدونها لم أتمالك نفسى من الدهشة والعجب ووجدتتى أضرب
كفا بكف!! إذ كيف يتصور هؤلاء أن شعرهم هذا يمكن أن يكون له
أى تأثير ثورى على الجمهور!! وكيف يتصورون أنهم بهذا الشعر
الذى تكمن "حدثته" فى التوقع داخل الكلمات يمكن أن يكون له تأثير
جماهيري من أى نوع!!

إن هذا الشعر "الحدائى" الذى ينتجونه لا يعبر إلا عن ترهات فى نفس صاحبه وفى إطار عالم لغوى خاص يصطنعه ويعيش فيه!! إنه "الشعر" الذى لا يفهمه ولا يتفاعل معه سوى من ينتجونه، فكيف تجرأوا على وصفه بالثورية المؤثرة فى "الجماهير التى تمارس العمل الثورى"!!

على كل حال، لقد خرجت مؤخرا من تلك الحيرة وتلك التساؤلات التى أرقنتى منذ زمن، وذلك حينما قرأت للدكتور شكرى عياد كتابه الأخير "المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين"، ووجدته - وهو الناقد الكبير وصاحب الدراسات الأدبية الكثيرة والعميقة - يعبر عما يحيرنى ويشاركنى فيه وهو يتساءل متعجبا فى إطار تقييمه لتيار "الحدائى" العربية:

"هل نقول إن الحدائى العربية انطوت على شىء من خداع النفس؟ هل نقول إن هذه الحدائى إذ تصف نفسها بالثورية لا تريد فى الحقيقة إلا أن تتخذ واجهة مناسبة أمام النظم "الثورية" فى العالم العربى؟ هل نقول إن شعراء الحدائى العربية وهم شعراء النخبة إنما يقدمون زاداً كلامياً لهذه النخبة تغذى به سخطها على واقع اجتماعى تعلم - رغم تمتعها فيه - أنه فاسد ومرشح للانهار؟ هل نقول - أكثر من هذا - إن دعوى "عربية" الحدائى - هذه الحدائى - دعوى

زانفة لأنها لا تزيد على أن تنقل إلينا مفاهيم الحداثة الغربية، بل مفاهيم "حداثة" معينة، حداثة الغريب واللافت والمثير بعد أن انقضى عهد رواد الحداثة الحقيقيين أمثال بودليير ورامبو وازرباوند و د. هـ. لورنس وو. ب. بيتس وجيمس جويس و ت. س. اليوت، الذين شككوا أبناء الحضارة الغربية فى قيم هذه الحضارة، وهى نفسها التى يبشر بها حداثيونا هؤلاء باسم الحضارة الإنسانية، وهى بالفعل حضارة إنسانية لأنها جعلت الإنسان مصدر القيم كلها، فانتهت بأن أصبحت الآلة التى اخترعها الإنسان لتهدى له مزيداً من القوة أو مزيداً من السعادة، سبباً لشكائه وربما لدماره!؟

و "النخبة" عندنا - حتى فى مجال الثقافة - تفتع عادة بـ "آخر ما أنتجته المصانع الأوربية أو الأمريكية" وقد تضع فى أعز مكان من "الصالون" ما يلقىه الغربيون على جانب الطريق". (ص ٦٨ - ٦٩).

صدقت يا ناقدنا الكبير فى كل تساؤل وفى كل كلمة من هذه الكلمات القوية المعبرة، والناقد الكبير لا يكون كبيراً إلا حينما يواجه القضايا بمثل هذا العمق وذلك الشمول.

ولم يبق إلا أن أدعو صادقاً كل "الحداثيين" العرب أن يقرأوا هذا الكلام السابق جيداً لعلهم يفتنون بأن الخروج من "دائرة

الكلمات" أصبح أمرا ضروريا إذا ما أرادوا أن يعبروا عنا حقا!!
ولعلمهم يقتنعون أيضا بأن "الحدائث" الحقيقية في الشعر العربي
المعاصر إنما تبدأ حينما يعبر الشاعر العربي عن الإنسان العربي
وقضاياه الحقيقية بلغة يفهمها هذا الإنسان ويتفاعل معها لا بلغة
مستغلقة حتى على من يستخدمونها!!

إن "اللغة" في كل فنون الكلام كما في الشعر هي أداة لتوصيل
المعاني والأفكار وليست هي "المعاني" أو "الأفكار" ذاتها!

وإذا ما عجز الشاعر العربي عن استخدام أدواته الفنية - أي
اللغة - في توصيل ما يريده من أفكار ومعان إلى المتلقي، فليس
شاعرا وليس عربيا كذلك!!